الحقائق العليا في الحياة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

الإيمان . الحق . الجمال . الخير . القوة . الحب

«ألفاظ إذا نطقت بها تتحرك لها في نفسي دنيا كاملة !»

تلك أعمدة الكون الخفية ، تسكن قممها عقول المتأملين ، وتسجد على أقدامها قلوبهم . قد أسبغ خالق الكون وواهب الحياة على العقول والأرواح ظلالاً من تكريمه واحترامه حين أوحى لها هذه الحقائق ، وأوحى لها أن تتعرف إليها كما أوحى إلى الأجساد أن تتعرف إلى التراب والماء والغذاء والهواء ...

وليت شعري ! هل تسعفني خواطري الدائمة الدوران حول هذه الحقائق فتحضرني جميعها وأنا أكتب عنها ؟

إني أبدأ الكتابة الآن وليس في نفسي إلا صور مبهمة منها . أما تركيز أفكارها وتجميعها وتجنيدها وعرضها ، فأمر أسأل « الحق الأول الأكبر ! » أن يتولى هو بفيئه الخالق « إخراجه » من قلمي العاجز كما يخرج النخلة السحوق من النواة الضئيلة !

* * *

وإن تعجبوا فعجب لجماد الأقلام وطين الألسنة حين يتولاها الجشع فيحاولان أن يمسكا السيالات التي لا تمسك !

وليت شعري ! متى يأتي الانسان الذي يستطيع أن يقول كل ما في رأسه بألفاظ ترضيه وتترجم عن التيارات العميقة المتلاطمة في قرار قلبه ؟

إنه لا شك الانسان الأخير الذي يختتم به وجود الانسانية هنا على الأرض ... ولعلها ما تلاحقت أنسالها في الأرض إلا لتقول « الأسماء كلها » التي علمها الخالق أباها آدم ...

فالانسان الأخير هو آدم ثان جاء ليختم الدورة التي بدأها آدم الأول ... هو الانسان الذي صبت فيه كل جداول البيان وسكنت فيه كل أطياف المعاني ، فوعى كل كلمة نفسية ولفظية اختلج بها شعور أو فكر أو لسان ...

هو الانسان الذي يأتي بعد أن لم يبق شيء في عالم الآفاق وعالم الأنفس إلا وجد له لفظاً إنسانياً يصوره ويحدده ...

هو ابن الانسانية الواحدة الهائلة التي تنقلت في الدهور والأحقاب فوقع عليها كل الضوء وكل الظلام ! !

١ — الإيمان :

أنا الآن في « الرستمية[1] » على أديم الأرض مباشرة ، وتحت السماء مباشرة ... حافي القدمين مجرودهما ، جاث على الركبتين معقورهما ، شاخص العينين محرورهما ، مرهف السمعين مشدودهما ، صامت الشفتين معقودهما ... في الظلام الصارم ! والريح تصفر في كل ما يحيط بي من مبان ومنافذ وأشجار .. وبنات آوى تعوي وتعترك على قرب مني ... وكلاب الرستمية وكلاب تلك القرية الماثلة على رأس تعريجة من تعاريج نهر «ديالى» تتبادلان نباحاً داعاً متشابهاً هو عندي نغم يهيء في نفسي جواً معنوياً لليالي القرى والخيام . . والنوم ذائع السلطان منشور الأعلام على مباني « دار المعلمين الريفية » ، وعلى أجساد ساكنيها من الطلاب والمعلمين . . وكل ما في جسمي ونفسي يقظ : كل خلية وكل شعرة ، وكل قوى جاذبة أو دافعة ، وكل خاطرة جديدة عابرة أو مخزونة غابرة ، مستجمع أرواح آبائي وأرواح أنسالي . . في خيالي ، وجميع حياتي الذاهبة في الأزل والآتية في الأبد !

أنا في ساعة خيال أو عقل ، وفي جد أو مجانة ؟ لا أدري . لا أدري إلا أن الرحى الدموية الحمراء التي في صدري تدور دوراناً لا عهد لي به من قبل ...

أنا أيتها الأكوان الناطقة والصامتة الموغلة في الصمت ، أحاول أن أتكلم عنك بين يدي أبي وأبيك ! بالكلمة التي أحياني النطق بها كما أحيا كل كائن يحسها حقيقة شائعة في نفسه ولكن لا يستطيع البيان ...

أدير فكري وكل حواسي في الدنيا لأجد ابتداء القول ، فلا أظفر إلا بالاستغلاق ؛ وإن كنت أظفر بامتلاء أوعية أخرى لا سلطان للبيان على نقل ما فيها ..

(١) ضاحية قيحاء من ضواحي بغداد

كل فراغ حياتي مملوء بخواطر مستبدة بي ، ألاقي بها الحركة والركود ، والنور والظلمة ، والبحر والصحراء ، والنملة والجمل ، والعلم والجهل ، والسلامة والسقم ، وكل شيء ، وكل شيء ، وكل شيء …

فاعذروني أيها الفارغون !

واطلبوا التوفيق لقلمي المسكين الذي يتصدى للنار ليكتب فيها عنها …

ويتصدى للريح العصوف ليحملها قبل أن تحمله وتذروه مع الهشيم …

* * *

الإيمان ؟!

يالله من ابتذال الألفاظ الكريمة ونزولها من لمات الفكر العالي وسبحات الروح ، إلى رؤوس الأغبياء والجامدين والمحدودين !

ويالله من جناية التجسيم والتشبيه على المعاني التي حياتها في أن تكون مطلقة متفردة منساحة في محيطات ربها انسياح الكهرباء والجاذبية والاشعاع !

ويالله لنداء الملائكة إذا ولغت فيه الكلاب والخنازير والقردة !

وأواه من الذين ينظرون إلى الألفاظ الحية نظرهم إلى الحجارة والصخور !

أخذوا هذه الكلمة التي لا يمكن أن يكون قد نطق بها ناطقها الأول إلا بوحي ، وصاروا يلوكونها كما يلوك الملقنون بعض الألفاظ يلقونها على أجساد الموتى …

أخذوها من معادنها ومناجمها العميقة في قلوب الأنبياء وخواطر الأصفياء وألقوها في أنواء التماسيح والقردة ، فصارت تمض وتقهقه بها ممسوخة في غير موضعها ، كموسيقى الجنازات .

أخذوها كما يأخذون الوردة المنضورة المعطورة من غصنها ، فلا يزالون يبتذلون شذاها على أنوفهم المزكومة ، وحريرها بين أصابعهم القاسية ، حتى يمزقوها فلا يبقى منها في أيديهم غير جثة مسحوقة يلقونها في التراب …

أخذوها من نصابها في قلوب الأنبياء وخواطر الأصفياء . ووضعوها على قلوبهم الضيقة كما توضع الشموع على القبور …

صيروها ملكا لكل بليد أبله ، تموت وتنطفئ على شفتيه الكلمات المنيرة كما تموت العروس في جلوتها …

ثم وضعوها في قواميسهم وكتبهم بجانب هذه الجمادات والجيف : تراب . رصاص . ذهب . حديد . معدة .. !

فياموحي المعاني ! حررني من ألفاظهم الميتة الجامدة التافهة ، واحلل عقدة من لساني حتى أبين معناك في قلبي . وما أهول معناك فيه !

الطبيعة كلها أوتار مرنة ، وكلمات مبينة ، وأصابع مشيرة ، يسمعها ويقرؤها ويراها ذلك الراهب الذي سجنته بين ضلوعي !

وأناملي الآن تحاول أن تشير إليك بالقلم والمداد في رموز أغنى بها وأبكي !

ليس الكلام هنا شيئا يذكر بجانب الفكر ، وليس الفكر شيئا يذكر بجانب الوجدان …

ولكي أكتب عن معناك كتابة عارف … لا بد لي من من جسد آدم الذي لامسته يدك ، وعمر نوح الذي طال فيه سرك ، وعقل ابراهيم الذي سعى أمامه نورك ، وأذن موسى التي رن فيها صوتك ، وإنشاد داود الذي ترقرق فيه نغمك ، ويد عيسى التي كان معها إذنك ، وكمال محمد الذي انطلقت منه إلى الانسانية كلمتك الخاتمة …

أجل ! لا بد لهذا أن أغتسل بالبحر كله ، وأتوضأ بالشعاع كله ، وأتوج بالشمس والقمر والنجوم .. ثم أندمج في كل شيء لأتسمع إلى الهمسات والأحاديث الدائمة بين العوالم والأكوان عن الظاهر الباطن ، والأول الآخر … المتكبر ! الذي أذابها وأفناها انتظار لمحة لوجهه ذي الجلال !

ولكن يا طين آدم ! مالك ولهذا العلو الشاهق ؟

يا خنفساء الغبراء ! لا تحلمي بجو النسور . . .

يا جُعَل ! إن شذا الورد يخنقك . . . فلا تطلب سكنى الرياض . . .

كيف يقوى على سنا الرب قلب … ليس يقوى على سنا المربوب !
والكمالات لا تناهى لدى الله … فلا بد من بقاء الغيوب

أجل يا « يا كثير » !

ولكن الذي يتصدى لكبرياء الالهية ، إنما يحاول أن يبلغ أقصى حدوده وأدنى حدودها ليعود فيقول كلمة تريح ذلك الراهب السجين ، وتكون مشاركة منه في عزف اللحن الدائم

مع أوتار الطبيعة ، وفى تسجيــل الكلمات المبينة مع أقلام الطبيعة ... حتى يرى بعد ذلك كله هذه طائرة بجوها الموسيقى ، تخفق بجناحيها فى رئات الناس ، وترقص فى ضياء عيونهم ، وتأكل من حبات قلوبهم ، وتغرد فى منطقة الصمت من أفئدتهم !

* * *

قد لا يدرك الإيمان على حقيقته إلا المؤمن الأخرس الأصم . . . الذى لم يقل ولم يسمع إلا الكلمات النفسية التى لا تصب بقوالب من الألفاظ الضيقة التى قد تكون منحرفة الوضع أو مبهمة الدلالة أو ناقصة الموسيقى . ولكل معنى فى النفس جو موسيقى يجب أن يصحبه فى اللفظ

وإنى أرثى للذين لم يعرفوا الالهية إلا من ألفاظ الكتب ! ولأن الناس صاروا يأخذون عقيدتهم فى الالهية من الكتب ومن الأفواه ، اختلفوا وتفرقوا وتباينت الصور التى فى رؤوسهم منها . ولو أنهم أخذوها مباشرة من الطبيعة الواضحة الواحدة ، التى ليس فى كلماتها انحرافات فى الوضع، ولا إبهام فى الدلالة ، ولا نقص فى الموسيقى . . . لاتفقوا وتلاقوا على فهم المعنى الواحد الذى يملؤها ، كما كانوا أول زمانهم قبل تشعب الكلام بهم ووجود ميراث من الكلمات الملوطة التى تمحو طابع الفطرة البسيطة التى لا تعرف الرموز ولا تستغنى بها عن النماذج الواضحة التى تملأ الطبيعة

ويا لله من جناية الناس على وسائل إنقاذهم ورفعهم من حضيضهم !

إن الملهمين والملماء يفتحون لهم أبواب أقفاصهم وسجونهم حتى ينطلقوا ويفروا منها إلى الطبيعة . ومن الطبيعة تنفذ عقولهم إلى خالقها وصاحب المشيئة الغالبة عليها . ولكن الأغبياء والمحدودين من الدعاة يعودون بهم ثانياً إلى الأقفاص والسجون ويسدون أبوابها بالأوثان والأنصاب والصور والرموز ، ويلهونهم بالخرافات

وعندئذ تموت وتنطمس الكلمات الحية المنيرة ، فينطقون بها ويخيل إلى رائيهم من ذوى البصائر أنهم يلفظون حجارة أو جثثاً ميتة للمعانى الكريمة . . .

وإذا انقلب الوضع فصار الراعى يهتدى بالقطيع ، فهنالك ضياع الجميع . . .

* * *

وهنا أسأل :

لماذا لا تخدمون الايمان أيها الكتاب الموهوبون فتخدموا بذلك أقلامكم وتخدموا الحياة والفن ؟

لماذا تلسعكم النار وتتحول أقلامكم إلى عقارب تلفونها بسرعة من أيديكم إذا ما سجل أحدكم كلمة مؤمنة ؟

أنا أعرف السبب . أعرفه وأعزو إليه كل هذا الضعف : هو أنكم تأنفون من أحاديث العوام والعجائز والفقراء الذين جعلوا الايمان غذاءهم وعزاءهم لأنهم فقدوا كل شيء سواه . فهم يعتزون به ويتزيدون فيه بأحلام المحرومين . فمن هنا تراكمت فى نفوسكم « عقد نفسية » خفية فى العقل الباطن تعقل أقلامكم عن الخوض فى المعانى العامية . . .

ولكنى أعيذ فطنتكم أن تجهلوا يد البستاني مرآة للبستان . . .

وإنكم إذ تتحاشون الحديث فى الايمان لمحرومون من منابع الالهام الدائم ، وحياة اللذة بالشعر ، وحياة اللذة بالعلم ، وحياة اللذة بالقوة ، وحياة اللذة بالمجد الشخصي ، واحترامكم لأنفسكم !

أتدرون أنكم لا تسبحون إلا فى الضحضاح من المعانى المكشوفة الدائرة حول الظاهر من الحياة الدنيا ، وأنكم تدورون فى هذا الضحضاح دوراناً مضحكاً » ؟

أتدرون أنكم بإهمالكم رصد الأفق الذى تلتقى فيه كل الحقائق والجمالات والكمالات والرائعات من عالم الخفاء وعالم الظهور ، قد ضيعتم أعلى نغم وعطلتم شعركم من أعذبه ؟

هبوا أنكم لم ترضوا بحديث بعض المأثورات من كتب الدين عن الالهية ، فلماذا لا تحدثون أنتم الانسانية بحديثكم الشخصى عنها وهى تملأ كل نفس عالمة أو شاعرة ؟

وهبوا أن بعض الأنجاس ولغوا فى هذا النبع ، فهل معنى ذلك أنه تنجس عند الذين يعرفون من أين ينبع وإلى أين ينتهى ؟

كلا ! لن تذهب مسؤولية ذوى الطباع الرحبة فى التكلم للحق إذا تكلم فيه الجامدون أو الدجالون ، بل إن مسؤوليتهم تبدأ من هنا ...

وإن الذى يخرج من الدنيا كاتبا أو شاعرا أو فنانا أو عالما أو متأملا ، ثم لا يترك فى ميراثه حديثا عن « ملتقى الأكوان ! » لا ريب أن يحكم عليه الحق بأنه أعمى ، لأنه مر على حجرات جدرانها كلها مرايا فلم يرها ولم يحدثنا عنها ...

« بغداد — دار المعلمين الريفية » عبد المنعم خلاف